الإسلام حضارة ورسالة

كان مبعث الرسول عليه السلام، إيذانا بالحضارة الإسلامية إذ كان نهاية عهد وبداية عهد .. فلم تكن رسالته حين بعث مجرد طقوس ولكنها كانت شعائر وشرائع أى دينا ودولة .. أى إنسانيات وسياسات ونظما وسلوكا فى الحياة وطابع شخصيته.

حيث توجد (أخلاق)، توجد حضارة راشدة أى ضمير حضارى ... وحياته قبل الرسالة كانت هذا الضمير ...

لم يكن له مال وهو فى الذؤابة من قريش .. ومع هذا سلمت نفسه من الشح والجشع والرغبة المحمومة فى الإثراء السريع أو البطىء فكان عفاً شفاً، شاعت بين القوم عفته فلقبوه بالأمين.. واشتهرت بينهم رجاحته فحكموه حين اختلفوا على وضع الحجر الأسود وارتضوا رأيه فى التحكيم.

واتصلت سيرته كما تتصل الملاحم الكبرى فى التاريخ .. تتعاقب الأيام والسنون ولا تبلى بل تروع وتتجدد وتضوع .. فله على كل قلم ذكر، وله فى كل قلب مؤمن، مكان .. وله على كل لسان، سلام، ما جلجلت فوق سامقات المآذن كلمة «الله اكبر».

أدى محمد الرسول، رسالة، ونشر دينا، وكون من الشتات، أمة، وخلق من البداوة، حضارة طلعت شمسا على الغرب والشرق.. وهذا عندى معجزة فى ذاتها .. معجزته الكبرى فاستحالة أن يأتوا بسورة من القرآن، معجزة عصر ولكن أن يؤلف من القبائل المتنازعة .. ومن «الأيام» المروعة، ومن العادات المفزعة، أمة ومن العرف، دولة، ومن الجاهلية، حضارة .. ومن الضعف، قوة وعزة وغلبة .. أن يصنع هذا كله أعزل أميا، معجزة الدنيا .. والإنسان فى أى مكان .. وفى كل زمان سواء لدينا من آمن به، ومن ناوءه.

هيأ الله للعرب، الإسلام، بسماويته، والرسول بقدوته فصنع الدين والقوة رجالا من طراز آخر واعد .. رجالا كانوا إرهاصا لحضارة جديدة من حضارات الإنسان فعمر ابن

الخطاب فى الجاهلية، كان سيدا سيادته قوة وفتوة فحسب .. ولكن عمر بن الخطاب هذا، صنع منه الإسلام مثالا **عزيزا عاليا للعدل، والحق، والرأى، والفتوى، والتشريع، والسياسة والحكم.**

استطاع الإسلام أن يتغلغل فى نفسه ويكيف تفكيره، واستطاعت شخصية الرسول أن تأسره وتكيف بالقوة، سلوكه .. فارتفع فى الفعل والقول والرأى، والتدبير والحكم حتى غدا كتابه فى القضاء وكتابه فى قيادة الجيوش، قيما إسلامية حضارية وهما فى الوقت نفسه دستوران فى بابهما لم يعف عليهما الدهر.

(بسم الله الرحمن والرحيم .. من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى عبد الله بن قيس سلام عليك .. أما بعد، فإن للقضاء فريضة محكمة، وسنة متبعة، فافهم إذا أدلى إليك، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له، آسى بين الناس فى:

وجهك وعدلك .. ومجلسك

حتى لا يطمع شريف فى حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك .. البينة على من أدعى، واليمين على من أنكر.. والصلح جائز بين المسلمين، إلا صلحا أحل حراما أو حرم حلالا..

لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك، أن ترجع الى الحق، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل.

الفهم الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة، ثم اعرف الأشباه والأمثال، فقس الأمور عند ذلك، واعمد إلى أقربها إلى الله، وأشبهها بالحق .. واجعل لمن ادعى حقا غائبا أو بينة أمدا ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، والا استحللت عليه القضية: فإنه أنفى للشك، وأجلى للعمى.

المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد، ومجربا عليه شهادة زور، أو ظنينا فى ولاء أو نسب، فإن الله تولى منكم السرائر، ودرأ بالبينات والإيمان.

إياك والضجر، والتأذى بالخصوم، والتنكر عند الخصومات فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر.

الفهم الفهم فيما تلجج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة ...

(ومن هنا كان الاجتهاد روح الثقافة الإسلامية).

(لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه عقلك، وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق).

ومن هذا المنطلق الكريم والشجاع، كان سلطان العلماء العز بن عبد السلام. لم يكن هذا كله محصلة عمر بن الخطاب «الفرد» على عظم حظه من نوابغ الصفات وأخلاق الرجال، ولكنه محصلة الدين الجديد والرسول الجديد.

ولد فى الإسلام، الذين صاروا بسماحته أحرارا.

وولد فى الإسلام، المتنابذون، الذين أصبحوا بنعمته إخوانا.

ومن أعطاف رسول الإسلام خرجت القدوة فكانت نبراسا وعلامة طريق. لقد شغل الدنيا، والناس، والاقلام، حتى المستشرقين.

ألهم وهو النبى الأمى، الكاتبين من المسلمين وغير المسلمين، عشرات الكتب وألوف الصفحات .. بعضهم أطرى مناقبه، والبعض الآخر، كابر، إذ، له، غرض خبئ ولكنه على الحالين، كالشمس فى متوع الضحى لا يزيدها سطوعا، رؤية عين، ولا يغض منها ألا يرى ضوءها من ليس ذا بصر .. لقد شغل فى الحالين، الحياة والناس .. شغل التاريخ والمؤرخين .. دخل قلوب المؤمنين وعقول المفكرين .. قامت باسمه الدول وارتفعت أعلام .. اهتزت عروش وظهرت عروش .. ولدت امبراطوريات ودالت امبراطوريات .. تغير التاريخ فى الشرق والغرب.

فعل محمد هذا كله لأن الدين الذى أتى به كان سلاحا فى الروح وسلاما على الأرض وهو سلام فى الروح يستقر ايمانا فى القلب، ويتبدى صدقاً فى العمل، ويتهدى ارتفاعا فى السلوك .. فلا يقول قائل (إياك نعبد وإياك نستعين) ثم يتخذ من دونه أربابا.

كانت الرسالات قبله دينية بحتة، ولكن رسالته كانت دينا وشريعة شرعت للناس فى أمور حياتهم ما قامت عليه القوانين فى الشرق العربى ولم تزد عليه القوانين فى الغرب.

وضع الإسلام النظم للحرب والسلم، كما شرع الإسلام التحكيم الدولى، وشرع حرية البحار، ورسم ماهية العلاقات بين الدول .. وعرف الملكية، وحدد المسئوليات الجنائية منها والمدنية.

هذا كله فى إنسانية عميقة تعلى سلطان الضمير، حتى لا يفلت الجانى من حسابه، ولو أفلت من القوانين الوضعية والسلطات الحاكمة.

إن الإسلام بعد أربعة عشر قرنا يفرض وجوده بصلاحية شريعته بأبعادها وأعماقها المختلفة، على المؤتمرات العالمية، حتى ليعلن نقيب المحامين فى باريس بلد القوانين والدساتير أن (الشريعة الإسلامية لها من العمق، والأصالة، والدقة، وكثرة التفريع والصلاحية، ما يقابل جميع الأحداث).

أليس غريبا أن يضطلع بهذا كله نبى أمى وحده، حين كانت الرسل قبله، تنوء بدعوة محدودة فى عدد محدود فكان الله يرسل اثنين فى زمن واحد، بل ويرسل ثلاثة أحياناً: (إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث).

أليس غريبا أن يفجر نبى أمى بدعوته، كل هذه النظم والقوانين، والعلوم الدينية والمدنية؟

أن يصف المسلمون نبى الله بما هو أهل له، ليس بغريب .. ولكن أن يقف غير المسلمين إزاءه، فى دهشة لا تخفى يحللون ويفسرون، فذلك هو العجب العجاب .. هذا «مونتجومرى وات» يؤلف كتابا عنه بعنوان (محمد النبى ورجل الدولة) جاء فيه:

(إنه صاحب الامبراطورية المترامية الأطراف والتى ظهرت على مسرح الوجود بعد وفاته).

«ومونتجومرى وات» يعزوها إلى بعد نظره السياسى .. إلى حكمته وحصافة نظره وصدق رأيه فى الرجال .. إلى البناء المحكم الذى وضع قواعده بحيث يثبت على العواصف حتى أن هذا البناء تخطى محنة موت الرسول بسرعة ومضى فى طريقه قدما، مزدهرا محققا من الإنجازات ما يثير العجب والإعجاب معا.

أقول إن قوة الوثوق بالرسول عليه السلام علامة كبيرة فى تاريخ الإنسان لم توف بعد حقها من الكتابة. لقد لاحظ «ديورانت» فى (قصة الحضارة) صلاحية الإسلام الذى جاء به محمد عليه السلام لمجتمع دائم، صلاحية تجمع بين الواقع والمثال ..

وقد لاحظ العلماء المحدثون منذ «سنوك هوجرونير» ارتباط القانون بالدين فى بلاد الإسلام، حتى ليربط الأستاذ أ. فيظى: بين النظام القضائى فى الهند فى العصور الوسطى وبين الإسلام عندما كانت الهند العليا تحت سلطان الملوك المسلمين.

ويقول د. أ. ح. قريشى وزير المعارف فى باكستان: (إن تجانس الشعوب الإسلامية كلها من أعظم مظاهر تأثير الإسلام ومجالى نفوذه وأدعاها إلى الدهشة .. إن

تماثل كل الشعوب الإسلامية وإطرادها أروع وأعجب من اختلافها .. وهذا صحيح إلى حد بعيد، وينطبق على مسلمي شبه القارة «الهندية الباكستانية» أيضاً.

إن أثر الإسلام فيهم عميق وحقيقي.

وهذا القول استقيته من بحثه «أسس الثقافة الباكستانية» في مؤتمر برنستون.

وفي مجال انبهار غير العرب بانتشار الإسلام ورسوخه يقول أرنولد في كتابه (الدعوة إلى الإسلام) عند الحديث عن انتشار الإسلام بين مسيحيي إفريقية وهو بصدد مصر: (ليس هناك شاهد من الشواهد يدل على أن دخولهم في الإسلام على نطاق واسع، كان راجعا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التسامح من جانب حكامهم، بل لقد تحول كثير من القبط إلى الإسلام قبل أن يتم الفتح، حين كانت الاسكندرية، حاضرة مصر وقتئذ، لاتزال تقاوم الفاتحين). ص ٩٣.

يقول روبرت بريفانت في كتابه (تكوين الإنسانية): (لم يكن العلم فقط باعث الحياة في أوربا، بل الآثار العديدة الأخرى من الحضارة الإسلامية التي أفاضت إشراقها الأول على حياة تلك القارة).

أقول إن ميلاد الرسول عليه الصلاة والسلام، كان مولد أمة ودولة وحضارة وأن عظمته الحقيقية فيما جاء به من الشرائع والشعائر، وما طابق القول العمل من سيرته وشخصيته، حت يخلق بالقوة العالية أكثر من نقطة تحول، على مستوى الفرد والجماعة .. جعلت من الإسلام ثورة إنسانية تتمثل في النقلة التي حدثت لأبي ذر الغفاري الذي تحول مما كان عليه، إلى العدل والإحسان.

إن الإسلام دين الفكر حتى ليسمى أهل الرأي: «أصحاب النظر» كان الرسول صلى الله عليه وسلم صادقا أمينا فملك الدنيا حاضرا وراحلا لا يغيب. كان زاهدا لأنه يعرف أن غنى الإنسان بما يحويه لا بما يقتنيه، وقد ضم جوانحه على كنوز من القيم والمعاني والسلوك.